د . فؤاد زكريا

التخلف الفكري وابعاده الحضارية

مقدمة :(*)

في احدى اللمحات الذكية حدد توفيق الحكيم (جريدة الاهرام في ١٩٧٣/١٢/٧) معنى التخلف بأنه عدم القدرة على ملاحقة الركب بعد ان كانت هذه القدرة متوافرة . وبهذا المعنى يكون المجتمع المتخلف ـ اذا التزمنا اشتقاق اللفظ ـ هو ذلك الذي كان مسايرا لموكب الحضارة يوما ما ، ثم عجز لسبب او لآخر عن الاستمرار في السير ، فسبقه الموكب . وهذا يعني ان هناك فرقا بين التخلف والتأخر : فالتأخر سمة للمجتمع الذي لم يكن يوما ما في المقدمة ، اما التخلف فهو سمة المجتمع الذي وصل الى المقدمة وحمل مشعل التقدم في وقت مضى ، ثم تباطأت مسيرته بعد ذلك او توقفت .

من هذا التحديد ، الذي يلتزم المعنى الاصلي للفظ ، نستطيع ان نتخذ نقطة انطلاقنا في بحث موضوع التخلف الفكري وابعاده الحضارية في العالم العربي . ذلك لان التخلف مرتبط ارتباطا اساسيا بالبعد الزمني وبالعلاقة بين الماضي والحاضر . والعالم العربي يقدم الينا مثلا بارزا تتوافر فيه كل مقومات التخلف ، بالمعنى الذي حددناه: اذ كان يوما ما رائدا لحضارة زاهية ، ثم توقفت مسيرته واصبح الان يتطلع الى الوراء متحسرا على الايام التي ولت . ولنذكر ، في هذا الصدد ، ان هناك صلة اشتقاقية واضحة بين الخلف ، والتخلف ، وان المتخلف ينظر دائما الى الخلف ، ومن ثم فان تحليل عوامل التخلف الفكري العربي ينبغي ان يرتكز اساسا على بحث تلك الصلة الفريدة بين الماضي والحاضر في العقل العربي ، وهي صلة ازعم انه لا يوجد لها نظير في الثقافات الاخرى ،وانها احد العناصر الرئيسية التي توصلنا الى فهم افضل لازمة الانسان العربي المعاصر . وعندما اقول انها توصلنا الى فهم افضل ، فانا لا اعني بذلك ان تحليل هذه الصلة بين الماضي والحاضر يقدم الينا حلا لازمة الانسان العربي وانما اعني انه يصحح بعض المفاهيم التي يشيع استخدامها عند معالجة هذا الموضوع ، وهذا التصحيح للمفاهيم هو الخطوة الاولى في طريق البحث عن عمل .

العلاقة بين الماضي والحاضر :

ان السمة التي تنفرد بها العلاقة بين الماضي والحاضر ، في الثقافة العربية ، هي ان الماضي ماثل دائما امام الحاضر ، لا بوصفه منمحيا في هذا الحاضر ومتداخلا فيه ، بل بوصفه قوة مستقلة عنه ، منافسة له ، تدافع عن حقوقها ازاءه ، وتحاول ان تحل محله ان استطاعت . ولو شئت ان الخص هذه السمة في كلمة واحدة ، لقلت ان نظرتنا الى الماضي « لا تاريخية » فالنظرة التاريخية الى الماضي هي تلك التي تضعه في سياقه الفعلي ، وتتأمله من منظور نسبي ، بوصفه مرحلة انتهى عهدها ، وتلاشت في مراحل لاحقة تجاوزتها بالتدريج حتى اوصلتنا الى الحاضر . وفي مثل النظرة التاريخية لا يكون الماضي قوة منافسة للحاضر ، ولا تثار على الاطلاق مشكلة التوفيق بين الماضي والحاضر ، لان الحاضر بطبيعته يحمل في داخله بذور الماضي ولان الماضي خلق الحاضر عن طريق تجاوزه المتدرج لذاته. اما في ثقافتنا العربية فان الماضي يقطع صلته بالتاريخ ، ويفقد طابعه النسبي ، ويخرج عن الاطار الزمني الذي كان مرتبطا به ، ليصبح قوة دائمة الحضور ، ولا بد ان يتصادم ما هو دائم الحضور مع الحاضر . ان العلاقة بينهما ، بايجاز ، علاقة قوتين متعارضتين ، مع ان الماضي والحاضر ليسا اصلا سوى قوة واحدة يتغير طابعها خلال الامتداد الزمني بالتدريج . وفي اعتقادي ان هذه النظرة « اللاتاريخية » الى الماضي هي المسئولة عن قدر كبير من التخلف الفكري الذي يعاني منه العالم العربي ، وعن ذلك التخبط والاضطراب الثقافي الذي يظهر اوضح ما يكون في الطرق التي تعالج بها مشكلة موقفنا من التراث ودوره في حياتنا الحاضرة ، او مشكلة الاصالة والمعاصرة كما يشيع تسميتها . وسوف يكون جهدي خلال هذا البحث منصبا على اثبات ان الطريقة التي طرحت بها هذه المشكلة ، سواء من جانب انصار التراث ام خصومه ، لم تكن هي الطريقة الصحيحة ، وان هذه النظرة المخطئة الى التراث ، والى ثقافتنا الماضية في صلتها بالحاضر من اهم اسباب التخلف الفكري وعدم الاستقرار الحضاري في عالمنا العربي .

موقف نقاد التراث :

لسنا نود ان نكون طرفا في المعركة الدائرة بين انصار التراث وخصومه ، لاننا نعتقد ان المفاهيم المستخدمة في هذه المعركة تفتقر الى الدقة ، وان الطريقة التي طرحت بها المشكلة غير سليمة . ومع ذلك فان الراي الذي نريد ان نثبته في النهاية لن يظهر بصورة واضحة، ولن يكون مرتكزا على اسس سليمة ، الا اذا عرضنا للمواقف المألوفة من التراث ، في علاقتها بحالة التخلف الفكري التي تعاني منها بلادنا .

ولنبدأ اولا بنقاد التراث ، فنلاحظ ان هؤلاء النقاد يشيرون عن حق الى عيوب كامنة في هذا التراث ، ومن الواجب ادخال تعديلات

(*) ظهرت بعض الافكار الرئيسية في هذا البحث ، في صورة موجزة جدا ، في مقال بجريدة الاهرام المصرية بتاريخ ١٩٧٣/١١/٢٨ .

اساسية عليه . ومع موافقتنا التامة على المقدمات التي يرتكزون عليها، فاننا لا نعتقد بصحة النتائج التي يستخلصونها منها .

فالتراث ، مثلا ، يتهم بانه حافل بالعناصر اللاعقلية ، والخرافية وبانه يحتشد بالغيبيات وبالافكار الاسطورية . وهذا اتهام يصدق بالفعل على التراث في جانب من جوانبه . ولكن النتيجة التي تستخلص منه ، وهي ان هذا التراث فاسد من اساسه ، ليست بالنتيجة الصحيحة . ذلك لان امثال هذه العناصر اللاعقلية والخرافية لم تمنع الفكر الاوربي من ان يصل الى ما وصل اليه الان من تقدم .

فمن الحقائق المعروفة ان العصور الوسطى الاوربية كان تفكيرها اشد اظلاما واغراقا في الغيبيات ، وان اوربا الحديثة ظلت تحتفظ بقدر غير قليل من العناصر اللاعقلية حتى في صميم عملها العلمي . فحتى القرن الثامن عشر كان العقل الاوربي ينظر الى الكهرباء والمغناطيسية على انها قوى خفية تؤثر عن بعد بطريقة غير مفهومة ، وكان الاعتقاد بوجود معادن مذكرة واخرى مؤنثة شائعا فيها ، وحتى عصر ديكارت كان يظن ان اجسام الحيوانات مجرد آلات لا وعي فيها ولا احساس ، وكان المصابون بأمراض عقلية يحرقون احيانا وهم احياء من اجل القضاء على الروح الشريرة التي تتقمصهم ، وكان السحر منتشرا على اوسع نطاق ، في نفس الوقت الذي كانت فيه اكثر التهم التي توجه الى الخصوم شيوعا ، من اجل الخلاص منهم ، هي تهمة ممارسة السحر .

كل ذلك كان شائعا في اوربا ، ولكنه لم يكن حائلا بين اوربا وبين قيادة حركة التقدم في العالم كله . فلماذا اذن كانت هذه العناصر من عوامل التخلف الفكري في العالم العربي ولم تكن كذلك في الغرب ؟ ومن المؤكد ان اساس التخلف لا يكمن في هذه العناصر ذاتها بل في شيء اخر . بل ان من الاوربيين المعاصرين من يرون هذه الاخطاء الفكرية مرحلة ضرورية من مراحل الطريق الموصل الى الحقيقة . وحسبنا ان نشير الى تأكيد « باشلار « Bachelard ان الخطأ يسبق الصواب دائما ، وان الصواب ليس الا محاولة مستمرة الخطأ ، وجهدا دائما يبذل من اجل قهر العقبات العديدة التي تعترض طريق المعرفة . فالعلم ليس في صميمه مجموعة من الحقائق التي نتوصل اليها واحدة بعد الاخرى ، وانما هو مجموعة من الاخطاء التي نتغلب عليها واحدة بعد الاخرى . وفي هذه الحالة يمكن ان تكون الخرافات ، والغيبيات ، مرحلة لا بد منها في المسار الطويل للمعرفة ، والمهم ـ بطبيعة الحال ـ هو ان تعقبها المراحل التي تعمل على تجاوزها . اي ان اللاعقلانية والخرافة ، اذا ما نظر اليها في اطار تاريخي ، لا يتعين ان تكون عاملا للتخلف ، وانما يتحدد ذلك وفقا للتطور اللاحق الذي يطرأ عليها .

والى مثل هذه النتيجة ننتهي لو تاملنا اتهاما اخر يوجه الى التراث العربي ، ويعد واحدا من العوامل المسئولة عن تخلفه الفكري، وهو الاستبداد واضطهاد الحريات (انظر مثلا : «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود) . فتاريخ الفكر الاوربي بدوره حافل بمظاهر قمع الحريات ولا سيما الحرية الفكرية . ولسنا نود ان نستشهد هنا بما كان يحدث للخارجين عن التيار المعترف به في العصور الوسطى ، او لشهداء الاصلاح الديني في عصر النهضة ، بل ان العصر الحديث ذاته قد استهل بفترة طويلة من اضطهاد الفكر باسم الدفاع عن الدين ، وفي هذه الفترة احرق جوردانو برونو حيا ، وحوكم جاليليو ، وكاد ان يدفع حياته ثمنا لايمانه بالنظام الفلكي الجديد وتاييده له بالملاحظات العملية والمعادلات الرياضية ، وعاش ديكارت مهددا بمصير مماثل لمصير جاليليو ، واضطر اسبينوزا الى ان يكتب بلغة ظاهرها لاهوتي وباطنها عقلاني حتمي . وهكذا لم يكن تاريخ الغرب خاليا من مظاهر قمع الحريات الفكرية ، وكانت السلطة الدينية تمارس ارهابا فكريا لا يقل عما شهدته الحضارة العربية في العهود التي بلغ فيها الاستبداد قمته . ومع ذلك فان هذا الاستبداد لم يمنع الغرب من التقدم ،ولم يحل دون ظهور «عصر التنوير» بحريته الفكرية الرائعة، بعد قرن واحد من الزمان .

ومجمل القول ان من حق المرء ان يشير الى عيوب في التراث وينبهنا الى طريقة التغلب عليها ، ولكن ليس من حقه ان يؤكد ان هذه العيوب وحدها هي التي ادت الى تخلفنا الفكري ، اذ ان نظائرها كانت موجودة في الغرب ، وربما بمزيد من القوة والعنف ، ولكنها لم تحل دون وصول الغرب الى مرحلة احترام الفكر الحر ، واكتساب التقدم الذي لا بد ان يترتب على ضمان حق العقل البشري في التعبير عن نفسه . وهنا ايضا ينبغي ان نعيد الى الاذهان تلك النتيجة التي اشرنا اليها من قبل . وهي ان العلة الحقيقية للتخلف الفكري ينبغي أن تلتمس ، لا في هذه العوامل السلبية وحدها ، بل في المسار الذي اتخذه تطورها التالي .

على ان خصوم التراث او نقاده يصرون على ان يوجهوا حملتهم بعنف الى هذه العوامل السلبية ، وكانها هي وحدها سبب التخلف . فعلام يدل هذا الاصرار ؟ انه في واقع الامر يدل على ان هؤلاء الخصوم كانوا يتوقعون من التراث ان يحل مشكلات الحاضر ، او يتصورون ان له مثل هذه الوظيفة ، ولكنهم يرونه عاجزا عن ادائها . ومجرد توجيه النقد بمثل هذا العنف ينطوي على مقارنة ضمنية بين التراث وبين الحاضر ، وعلى اعتقاد بان التراث قوة حية ينبغي الدخول في معركة معها ، اي ان هذا النقد ينطلق من نفس الموقف الذي يقفه انصار التراث ـ كما سنرى بعد قليل ـ وان يكن ينتهي اخر الامر الى نتيجة سلبية .

وحسبنا ، لكي ندلل على ان موقف الخصوم وموقف الانصار يمثلان وجهين ، احدهما سلبي والاخر ايجابي ، لعملة واحدة ، ان نشير الى موقف الاوربيين من تراثهم القديم . فمن العسير ان نجد اليوم كاتبا اوربيا ينتقد نظرة اليونانيين الى الكون ، مثلا ، او يحمل على النظريات الاخلاقية عند الفلاسفة الرومان . وليس هذا راجعا الى ان تلك الفلسفات او الاراء العلمية كانت بمنأى عن النقد ، بل هو راجع الى سيطرة النظرة التاريخية على موقف الاوربيين من التراث ، وادراكهم ان سيادة هذه النظرة التاريخية تعني ضرورة الامتناع عن مقارنة الماضي بالحاضر ، وبالتالي الامتناع عن توجيه اللوم او المدح الى التراث ، الا اذا كان ذلك داخل الاطار التاريخي الخاص به . وهكذا فاننا حيث نشدد الحملة على التراث من منظورنا الحاضر، انما نتخذ موقف من كان يتوقع منه شيئا ثم خاب ظنه . وحين نتهم التراث ، بطريقة مجردة ، بانه علة التخلف الفكري، فاننا نغفل بذلك الموقع التاريخي للتراث ، والوظيفة التي كان ينبغي عليه ان يؤديها في اطار عصره ، ونقفز بهذه العصور عبر مسافات زمنية واسعة ، وعندئذ يكون من السهل ان نجد عليه ـ من وجهة النظر الحاضرة ـ مآخذ لا اول لها ولا اخر . واذن فالبحث عن اسباب التخلف الفكري في العالم العربي لا ينبغي له ان يتخذ من نقد التراث مدخلا وحيدا ، او مدخلا رئيسيا .

موقف انصار التراث :

يمثل انصار التراث ، كما قلنا من قبل ، الوجه الاخر من نفس العملة التي تجعل للتراث نطاقا يفوق بكثير نطاقه الحقيقي، اي نطاقه التاريخي . وفي حالة هؤلاء الانصار يقال لنا ان سبب التخلف هو عدم التزامنا للتراث ، او هو ابتعاد الحاضر عنه ، وان طريق التقدم الحقيقي هو الرجوع اليه بصورة او باخرى . وصحيح ان الكثيرين يكتفون بالدعوة الى استلهام « روح » التراث ، والمبادىء المعنوية التي الهمت رواده واقطابه ، غير ان الفكر العربي الحديث والمعاصر

لم يعدم اناسا يدعون الى استعادة التراث بتفاصيله ، ويرون ان خلاص العرب في حاضرهم انما يكون ببحث الماضي من جديد ، حتى في جزئيات الحياة اليومية كالملبس او اسلوب المعاملات الجارية . وسواء أكان الامر متعلقا بهؤلاء او اولئك ، فان مثل هذا الموقف ، الذي يدعو الى استعادة مقومات الماضي في الحاضر ، يعد ـ بين سائر الثقافات العالمية ـ موقفا تنفرد به الثقافة العربية .

ولكي يدعم انصار التراث حجتهم ، فانهم يستندون الى مصادر معينة في هذا التراث يؤكدون ان المعرفة البشرية كلها تكمن فيها ، ويجعلونها تبدو كما لو كانت قد وعت علم السابقين واللاحقين ، بحيث يكون من العبث محاولة تجاوزها لان كل شيء سبق ان قيل فيها . وساكتفي بضرب امثلة قليلة لهذه المصادر التي يقال انها تشتمل على كل معرفة بشرية .

١ ـ فهناك فئة كاملة من الكتاب تخصص افرادها في اثبات ان الكشوف العلمية الحديثة موجودة كلها في ايات قرآنية . ويعتمد هؤلاء الكتاب على مشابهات لفظية بسيطة في اثبات دعواهم ، كالاعتماد على آية « ومن يحمل مثقال ذرة » ... في اثبات وجود علم الذرة في النصوص القرآنية او على اية « وجعلنا من الماء كل شيء حي » في اثبات وجود جميع حقائق علم الاحياء ، وربما وجد بعضهم فكرة سفن الفضاء في بعض آيات الاسراء الخ ...

ومن الامور التي تستدعي الانتباه ان هناك فريقا قويا من انصار التراث المتحمسين يرفضون هذا النوع من التفسير بكل قوة (بنت الشاطىء مثلا) ، ويستنكرون بشدة ان يكون القرآن كتابا في علم الطبيعة او البيولوجيا او تكنولوجيا الفضاء ، ويؤكدون ان الوظيفة الاخلاقية لا الوظيفة العملية ، هي الهدف الاساسي من النصوص الدينية .

وهناك فريق اخر ، من انصار التراث ايضا ، يرفض هذه المحاولة ذاتها لاسباب اخرى ، هي تهوينه من شأن العلم بوجه خاص . ففي رأي هذا الفريق ان العقل البشري باسره قاصر ، والعلم الذي يمكن ان يكتسبه الانسان ، مهما ارتفع ، انما هو ضرب من الوهم او الخداع، ولا بد ان يدرك الانسان ان ما يصل اليه من علم سيظل على الدوام محدودا ، وسيعود عليه في نهاية الامر باضرار وخيمة .مثلهذا الموقف المعادي للعلم ، لن يقبل تفسير النصوص الدينية على انها ذات وظيفة علمية تعليمية ، او على انها تتضمن اهم ما توصل اليه الانسان من الكشوف والمخترعات ، لسبب بسيط هو ان مجال العلم باكمله ثانوي الاهمية في نظره .

ومعنى ذلك ان معسكر انصار التراث لا يجتمع رايه على استخلاص العلم كله قديمه وحديثه ، من الايات القرآنية ، بل ان في داخل هذا المعسكر انقساما اساسيا في هذا الصدد ،وفيه اكثر من فريق يصف اصحابه هذه المحاولة اما بانها جهد ضائع وراء هدف عقيم ، واما بانها نفاق يدعو الى السخرية .

على ان التنفيذ الذي ربما كان اكثر حسما من هذا وذاك ، هو ان هذه المحاولة ، حتى لو صحت ، تخفق في تحقيق اي هدف . ذلك لان القصد منها هو اثبات ان النصوص القرآنية تحتوي على كل علم ، وعلى كل نظرية جديدة تكتشف ، وبالتالي ان دراسة هذه النصوص توصلنا ، وحدها ، الى كل ما نريد من علم ومعرفة . والمشكلة التي يؤدي اليها هذا الموقف هي اننا ، حتى لو افترضنا جدلا صحة كل ما يقال في هذا الصدد ،لا بد ان ننتظر اولا حتى تكتشفالنظرية العلمية بالجهد البشري ، ثم نهتدي اليها بعد ذلك في النص الديني . فالذرة لم يتبين وجودها في القرآن الا بعد ان كانت قد اكتشفت قوانينها فعلا على ايدي رذرفورد وطومسون ونيلزبور وغيرهم . وقل هذا عن كل كشف علمي يقال ان اصوله موجودة في الايات القرآنية . ولا شك ان حجة انصار التراث ، في هذا الصدد ، كان من الممكن ان تصبح فعالة بحق ، لو كانت هناك حالات امكن فيها التوصل الى كشف علمي عن طريق دراسة الايات التي ورد فيها هذا الكشف فحسب . ولكن لما كان من المستحيل الاتيان بحالة واحدة كان فيها النص الديني مصدرا لنظرية جديدة في العلم ، فان الهدف الذي يرمي اليه انصار هذا الرأي يفقد كل مبرر له .

وهكذا فان عشرات الكتب التي يحاول اصحابها ان يثبتوا وجود العلم كله ـ سواء ما اكتشف منه وما سيكتشف فيما بعد ـ في النصوص الدينية ، انما هي جهد ضائع يبذل في سبيل هدف محكوم عليه منذ البداية بالاخفاق . وفي هذه الحالة يكون رأي ذلك الفريق من انصار التراث ، الذي يرى ان النص الديني لا يستهدف سوى هداية البشر لا تعليمهم اساسيات الطبيعة او البيولوجيا او الكيمياء ، احكم بكثير من رأي اولئك الذين يتوهمون انهم يجلون من قدر النص الديني اذ يضعون فيه كل علوم البشر ، ثم يتبين لهم ان حجتهم تهدم نفسها بنفسها ، لانها حتى لو صدقت فستظل كل نظرية جديدة تكتشف بالاساليب البشرية المألوفة ، ولن نهتدي اليها في النص الديني الا بعد ان تكون قد اكتشفت بالفعل .

٢ ـ وثمة فئة اخرى لا تحاول ان ترد علم البشر ـ ما كان منه وما سيكون ـ الى نصوص دينية ، وانما ترى في التراث العلمي والفكري العربي ، في عصر نهضته الكبرى ، اصلا لعدد كبير من المكتشفات الحديثة ، وتمجد ذلك التراث بوصفه منبعا للحكمة والمعرفة لم تعرف البشرية له نظيرا . ولا جدال في ان موقف هذه الفئة اقوى من موقف الفئة السابقة ، لان هناك بالفعل سندا قويا من التاريخ للرأي الذي ينادي بتمجيد الفكر والعلم العربي القديم . ولهذا فاننا لا نجد ما يدعونا الى ان نؤكد مرة اخرى ان العصور الوسطى العربية كانت ، على عكس العصور الوسطى الاوربية ، فترة ازدهار علمي وفكري ، وان الدين الذي تدين به النهضة الاوربية الحديثة للعرب لم يعترف به حتى الان اعترافا كافيا ، بالرغم من كل ما كتب عنه .

على ان الامر الذي يضعف موقف هذه الفئة ليس المبدأ العام الذي ترتكز عليه ، وانما المبالغة المسرفة في تاكيد هذا المبدأ ،والسعي الى الخروج بهذا التراث المجيد عن اطاره التاريخي ، واضفاء نوع من الصحة المطلقة ، التي تسري على كل زمان ، على انجازاته التي كانت في وقتها شيئا رائعا بحق . (وفي هذا النزوع الى صبغ التراث العلمي والفكري بصبغة المطلق ، ما يقرب بين هذه الفئة وسابقتها على نحو لا يحتاج الى مزيد من البيان) .

فليس من الامور غير المألوفة ان نجد بعض كتابنا يحاولون اثبات ان احدث النظريات العلمية كانت موجودة لدى العرب . ولقد استمعت بنفسي الى واحد من كبار المتخصصين يؤكد ان نظرية النسبية قد عرفت ايام العرب (واظن انه حدد البيروني بوصفه مصدرا لهذه النظرية). كما ان هناك كثيرين غيره لا يكتفون ببيان اهمية الكشوف التي توصل اليها العلماء العرب في علم البصريات وغيرها من فروع الفيزياء . وانما يصرون على الاهتداء الى احدث النظريات العلمية في هذه الميادين لدى العرب القدماء . وعندما يمجدون عالما ومفكرا مثل ابن خلدون ، فانك تجد منهم من لا يكتفي بسرد انجازات هذه الشخصية الفذة ـ وهي انجازات رائعة بجميع المقاييس العالمية ـ بل يسعون جاهدين الى استخلاص التطورات التالية في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ من كتاباته . وحين يتحدثون في ميدان الفلسفة ، فلا بد ان يؤكدوا ان الغزالي قد استبق هيوم في نقده لفكرة العلية ، وان ابن تيمية تنبه ، قبل المناطقة الرياضيين المعاصرين بقرون متعددة ، الى عيوب اساسية في المنطق الارسطي ...

هذه النظرة « اللاتاريخية » الى التراث ، ومحاولة قراءة

التطورات التالية ، لا في الفكر العربي بل في الفكر الغربي ، بين سطوره ، من اوضح مظاهر التخلف الفكري في بلادنا . ذلك لانها ترفض النظر الى عصرنا من خلال منطقة الخاص ، وتحاول ان تفكر فيه بمنطق عصر اصبح في ذمة التاريخ ، مهما كان المجد الذي كان ينصف به عندئذ . وهي ، في انكارها للسياق التاريخي الذي ظهر فيه ذلك التراث ، ترتكب اخطاء فادحة حتى في حق التراث ذاته . فمن المستحيل ، مثلا ، ان تكون نظريات الفيزياء الحديثة قد ظهرت في العصور الوسطى العربية لان ظهورها في العصر الحديث كان مرتبطا بتطورات طويلة لم يكن لها نظير في اي عصر سابق . اما النقد الفلسفي عند الغزالي وعند ابن تيمية فكان في الحالتين يهدف اخر الامر الى ابطال حجج الفلاسفة والمنطق الذي يرتكزون عليه من اجل افساح الطريق للايمان ، وللتدخل الالهي المستمر في العالم ، اي انه كان داخلا في اطار فكري مختلف اختلافا حاسما عن ذلك الذي كانت تنتمي اليه افكار هيوم او المناطقة الرياضيين المحدثين .

على ان التفنيد الحاسم لهذا الموقف (بدوره) انما يكمن في كونه يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه . ففاية هذا التمجيد ، الذي نرجع فيه الى علمائنا ومفكرينا من العرب فضل التوصل الى عدد كبير من النظريات والافكار الحديثة ، هو ان نثبت ان العرب قد استبقوا علماء ومفكرين غربيين ، وانهم كانوا اصحاب فضل عليهم . ولكن حقيقة الامر ان هذه الغاية تنقلب الى تمجيد ضمني للفكر والعلم الغربي على حساب العرب : ذلك لانها تتخذ من نواتج الثقافة الغربية مقياسا وتحدد مكانة المفكر العربي تبعا لمدى اقترابه او ابتعاده عن هذا المفكر الغربي او ذاك . فاذا كان العالم العربي قد استبق انيشتين واذا كان المفكر العربي قد استبق كونت او هيوم ، فلا بد انه كان عظيما لهذا السبب ذاته . وهكذا يصبح معيار العظمة هنا هو الوصول الى ما انجزه الغرب . وفي هذا تمجيد ضمني للحضارة الغربية لا يحلم به الغربيون انفسهم . ولو كان لدينا ايمان حقيقي بما انجزه علماؤنا ومفكرونا ، لاقنعنا الانسانية بفضلهم عليها من حيث هم فحسب، لا من حيث انهم سبقوا افكار هذا العالم او ذاك المفكر الغربي .

ولكي تكتمل لدينا الصورة ، يكفينا ان نسأل انفسنا : هل حدث ذات يوم ان مجد الغربيون احد رجالهم لانه توصل ـ قبل هؤلاء العلماء او المفكرين العرب ـ الى رأي من آرائهم ، او لانه استطاع ان يتوسع فيه ويفصله بعدهم ؟ هنا يكمن الفرق بين الثقافة التي تمجد نفسها بثقة ، وتلك التي تمجد نفسها عن طريق الاصرار على مقارنة نفسها بالاخرين وربط نفسها بعجلتهم . ومن المؤكد ان هذه المقارنة الدائمة واتخاذ انجازات الغربيين مقياسا لمدى اصالتنا ، تؤدي اخر الامر الى تثبيت قيمة الثقافة الغربية على نحو مطلق ، اما قيمة ثقافتنا فلا تتاكد الا بقدر ما تنتسب بصورة او باخرى الى تلك الثقافة ، وهذا ما كنت اعنيه حين قلت ان هذا التمجيد اللاتاريخي يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه .

واذن فالخطأ لا يكمن في مجرد تمجيد التراث ، وانما يكمن في طريقة التمجيد ذاتها : فهو يقارن دائما بما انجزه الغرب ، وكان الشكل الوحيد الممكن للتقدم الثقافي هو ذلك الذي يوجد في الحضارة الغربية. كما ان التراث يصور كما لو كان قوة حية قادرة على حل جميع مشكلات العصر الحاضر . بل ان المتحمسين يذهبون الى حد القول ان اية هزيمة نلحق بنا ، حتى في الميدان العسكري ، لا بد ان تكون مرتبطة ، بصورة او باخرى ، بموقفنا من هذا التراث : فالتجاهل المزعوم لجذورنا ، ومنها الجذور الدينية ، هو في رأي الكثيرين السبب الحقيقي لهزيمة ١٩٦٧ ، وموقفنا من الماضي هو الذي ادى الى تلك الكارثة ، على حين ان الاداء الافضل الذي قمنا به في عام ١٩٧٣ انما يرجع ـ في نظر هؤلاء الى اننا ازددنا اقترابا من هذه الجذور بعد ان تبينت لنا فداحة الاضرار التي نجمت عن انفصالنا عنها . وهكذا يخرج التراث خروجا تاما عن مهمته الاصلية ، وعن وظيفته المنطقية التي لا يصح ان يتعداها حتى بالنسبة الى اشد الناس تحمسا له ، ويصبح الماضي هو القادر على تخليصنا من مشاكل الحاضر ، ويظل الفكر « متخلفا » ، راجعا الى الوراء وناظرا الى الخلف وتصبح المواجهة المباشرة للحاضر امرا مستحيل التحقيق في ظل هذه النظرة « التراجعية اللاتاريخيه » .

وبعبارة اخرى ، فان هذا النمط من انصار التراث يشوهون معنى الحاضر والماضي على حد سواء : اذ ان الماضي في نظرهم له وظيفة حرية فعالة ، يظل فيها محتفظا بطابعه الخاص ، ولكنه يؤثر في الحاضر ويتحكم فيه بطريقة مضادة للتاريخ ، ومن جهة اخرى فان الحاضر يضيع منه حضوره وحيويته ، اذ ينظر الى عوامل النجاح والاخفاق فيه على انها مرتبطة اساسا بموقفنا من الماضي ، ويفقد منطقه الخاص فعاليته لكي يحل محله منطق مستمد من عصر مغاير اساسا له . ومثل هذا المسلك ، الذي يؤدي الى موقف غير تاريخي ازاء الماضي والحاضر معا ، لا يترتب عليه فقط اخفاق عملي في معالجة مشكلات اللحظة الراهنة ، بل يترتب عليه ايضا اخفاق نظري ذريع في فهم وظيفة التراث وظلم فادح له ، يتم على ايدي اولئك الذين يتخذون من انفسهم انصارا له ، وتكون قوامه هي نفس عملية الدفاع والتبرير التي يظنون انهم يثبتون بها تمجيدهم للتراث .

السمة المميزة للتراث العربي :

لا بد ان تكون للتراث العربي سمة مميزة ، تضفي طابعها الخاص على جميع العوامل السابقة ، سواء منها تلك التي ينحاز لها انصار التراث ام خصومه ، وتنحرف بهذه العوامل في اتجاه خاص مميز للثقافة العربية على وجه التخصيص . فلماذا لم تؤد العناصر اللاعقلية، التي احتشدت بها الثقافة العربية زمنا طويلا ، او سياسة اضطهاد الفكر الحر التي حفل بها التاريخ العربي ، الى نتائج مماثلة لتلك التي احدثتها هذه العوامل في العالم العربي ؟ ولماذا استطاع الغرب ان ينهض بالرغم من هذه العوامل السلبية ، بينما كانت نتيجتها الوحيدة في مجتمعنا هي استمرار التخلف ؟ وما الذي يضطر انصار التراث الى التمسك بنظريتهم التراجعية والبحث عن علم العصر كله في نص ديني او كتاب كلاسيكي ؟ ما هي العلة الحقيقية لهذا التطلع المستمر الى الخلف الذي يرتبط ـ في المجال الفكري ـ بالتخلف ؟

هذه التساؤلات تتجاوز نطاق الانحياز للتراث او العداء له ، وتنتمي في الواقع الى مجال التشخيص والتعليل ، لا الى مجال التقييم واتخاذ المواقف المؤيدة او المعارضة . وليس من الممكن ان يوصف من يطرح هذه التساؤلات ويحاول تقديم اجابة عنها ، بانه ينتمي الى معسكر انصار التراث او خصومه ، بل هو اساسا شخص يريد ان يفهم ، ويتخذ موقف التحليل العلمي .

اننا نعتقد ان سمة « الانقطاع الحضاري » هي السمة المميزة للتراث الفكري والعلمي في بلادنا العربية ، وهي التي تصبغ بصبغتها الخاصة كل ما اشرنا اليه قبل الان من عوامل ، وتؤدي بانصار التراث وخصومه معا الى اتخاذ مواقف غير سليمة ، وتجعلهم يتوقعون من التراث ما لا ننتظر منه القيام به ، او يحملون عليه لاسباب هو منها بريء . ولو شئنا ان نهتدي الى سبب رئيسي لتخلفنا الفكري ، لقلنا ان هذا السبب هو ان ماضينا وحاضرنا لا يكونان خطا متصلا ، وان هذا الانقطاع هو الذي ادى الى تشويه نظرتنا الى الماضي والحاضر على السواء .

ان العلم والفكر العربي يتسم بفترة ازدهار وصل فيها الى اقصى درجات التقدم المتاحة في العصور الوسطى ، وكان العرب خلال هذه الفترة هم معلمو الانسانية وموجهوها بحق ، وكان مركز الثقل

الحضاري في العالم هو البلاد الناطقه بالعربية ، من الخليج الى جبال البرانس . ولكن هذه الفترة اللامعة ما لبثت ان انطفأت ،ولم يحدث استمرار او اتصال لحركة التقدم ، ونوقف نمو العقل العربي عند مرحلة معينة ، كاد بعدها هذا العقل ان يصبح منسيا . وفي عصر قريب ، قد يكون هو القرن العشرون او التاسع عشر على احسن الفروض ، بدأت مرحلة النهوض من جديد ، وحاولت ان تستعيد بذلك العقل الذي كان مكتمل النمو في وقت ما ، ولم يدر بخلدها ان نمو الانسانية ككل كان قد تجاوز هذه المرحلة بكثير ، وان التخلف كان اعمق واوسع مدى من ان يمكن تعويضه عن طريق استئناف السير من جديد ابتداء من النقطة التي توقفت عندها المسيرة قبل زمن طويل.

هذا الانقطاع الثقافي اذن امر واقع ، وليس هنا مجال لتعليله ، ولكن يكفينا ان نقرر حدوثه فحسب ، كظاهرة تاريخية لا سبيل الى انكارها . وحدوث هذا الانقطاع يعني ان العلم والفكر العربي لم يكوّن تراثا متصلا ، استمر منذ فترة ازدهاره حتى وقتنا الحالي بلا توقف ، بل كان فترة مضيئة اعقبها ظلام طويل ، وقد ترتب على عدم استمرار هذه الفترة انه لم تتهيأ لها الفرصة لكي تندمج في عقل الشعب العربي وتصبح مبادئها جزءا من تكوين الانسان الذهني في هذه البقعة من العالم ، وانما ظل العلم والفكر منعزلين ، ومقتصرين على الصفوة المختارة .

وصحيح ان كل علم وفكر رفيع يبدأ على يد صفوة مختارة كهذه، غير ان استمراره وتوطيده لمكانه يتيح له الفرصة لكي يصبح ، بالتدريج ، مندمجا في الذهن العادي ، داخلا في اطار العتاد العقلي الذي يحمله معه كل انسان.فنظرية كبرنيكوس كانت ، في عصر النهضة، فرضا لا يؤمن به الا قلة من العلماء ، ولكن استمرار التراث الكبرنيكي والجهود التي بذلت من اجل دعم هذا الفيض واثباته ، جعلتها تتحول بالتدريج الى عنصر اساسي من عناصر المعلومات الثقافية في ذهن الانسان العادي . وقل مثل ذلك عن نظرية التطور ، وعن مبادىء التحليل النفسي ، وغير ذلك من الكشوف والتحليلات الهامة التي كانت في البداية وقفا على اذهان قليلة ، ثم ادى استمرار التراث العلمي واتصاله الى اندماجها ، بعض الوقت ، في ثقافة الانسان غير المتخصص. اما في حالة التراث العربي ، فان العقلية العادية والسلوك اليومي للانسان العربي لم يكتسب شيئا من مبادئه ، ولم تصبح جزءا من سلوكه مثلما نقول اليوم عن الفرنسي ان نظرته الى الامور ديكارتية . بل ان اشد الناس تحمسا للتراث العربي يقدمون دعواهم على انها اكتشاف لعناصر لا يتوقع العقل العادي ان تكون قد وجدت يوما ما في البيئة العربية ، ولشخصيات لا بد ان « تندهش » حين نعلم انها كانت تفكر بهذه الطريقة المستنيرة المتعمقة . وهذه الدهشة في ذاتها دليل على ان تراث هذه الشخصيات لم يندمج فينا ، ولم يصبح جزءا من تكويننا .

على ان الاخطر من ذلك ، في رأيي ، هو ان معنى التراث نفسه يصبح في حالة الانقطاع الثقافي ، محتاجا الى مراجعة جذرية . ذلك لان قيمة اي تراث علمي وفكري ، نريد له ان يكون قوة حية ،انما تكمن في استمراره ، وفي كونه جزءا من تاريخ متصل . فالامتداد الزماني المتصل مصدر اساسي لقوة تأثير التراث ، بل هو جزء لا يتجزأ من معناه الحقيقي . وليس معنى ذلك ان التراث العلمي والفكري يجب ان يسير في خط مستقيم او يرسم خطا بيانيا صاعدا . فكلنا نعرف تلك النكسات المؤقتة والتعرجات والالتواءات التي تطرأ على مسار العلم والفكر في جميع الثقافات ، ولكن المهم في الامر ان يكون المسار في مجموعه سائرا بالرغم من حالات التراجع الجزئية المؤقتة، في طريق صاعد متصل .

ويترتب على هذا المسار المستمر والمتصل للعلم والفكر ، ان تكون قيمة التراث الذي يمثله كامنة في تجاوزه .وهذه عبارة تبدو منطوية على مفارقة واضحة ، ولكن من اليسير فهم معنى هذه القيمة التي يكتسبها التراث عندما يفند اذا ادركنا ان التراث المتصل اشبه ما يكون بالحياة في استمرارها عبر الاجيال المتعاقبة . فالكائن الحي يولد حياة اخرى تنطوي ، في آن واحد ، على معنى استمرار القديم من جهة ، وفنائه من جهة اخرى . وهذا الاستمرار من خلال الفناء هو الشكل الوحيد الذي نستطيع به الحياة ان تؤكد ذاتها . وقل مثل ذلك عن التراث : فهو ـ اذا كان متصلا ـ يحيا من خلال عملية تفنيده وتجاوزه .

ولو نظرنا الى اي تراث قديم ـ علمي مثلا ـ عبر مسافات زمنية طويلة لبدا لنا ان الحالة الجديدة للعلم منقطعة الصلة به تماما. ولكن حقيقة الامر هي ان هذه الحالة الجديدة لم تنشأ ، ولم تصبح ممكنة ، الا بفضل سلسلة من التطورات كان فيها القديم ذا تأثير في البداية ، ثم ضعف تأثيره بالتدريج نتيجة للنقد والتصحيح، واستمرت عملية التصحيح والتجديد هذه حتى المرحلة التي يبدو فيها ان القديم لم يعد له اي اثر . والواقع انه موجود ، ولكن من خلال فنائه وتصحيحه ونقده ،موجود في الاجيال الجديدة من النظريات والافكار التي ما كانت لتبعث الى الوجود لو لم تكن من سلالة هذا الجد البعيد . فنظرية كبرنيكوس موجودة لدى جاليليو بقوة، وجاليليو كان له تأثيره القوي في ديكارت وفي نيوتن ، ولكن مع مزيد من التعديل والتصحيح . ونيوتن كان هو القوة الدافعة للحركة العلمية التي استمرت طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والتي ادت في نهاية الامر ، وبعد سلسلة طويلة من التصحيحات والتعديلات ، الى انيشتين في اوائل القرن العشرين . وخلال ذلك كله يوجد القديم في الجديد لا بمعنى ان الجديد يعود الى القديم او يستلهم منه افكاره ، ولكن بمعنى ان القديم يتيح للجديد فرصة تجاوزه وتصحيحه وتفنيده . ومن خلال اخطاء القديم تأتي القوة الدافعة التي تولد الجديد .

اننا ، لو شئنا ان نلخص في كلمة واحدة التضاد بين النظرة الى التراث التي تؤدي الى تقدم فكري ، وتلك التي لا يترتب عليها سوى التخلف ، لقلنا ان التراث في الاولى ، يحيا من خلال موته، اما في الثانية فانه يموت من خلال حياته . في الاولى يكون التراث متصلا ، لا يطرأ عليه انقطاع ، فتكون النتيجة ان كل مرحلة قديمة تمهد الطريق لمرحلة جديدة تعلو عليها ، وتستوعبها في ذاتها ولكن مع تجاوزها وتفنيدها فالتراث هنا غذاء لجسم حي ، هو جسم المعرفة النامي . ونمو هذا الجسم لا يتحقق الا عن طريق امتصاصه للغذاء، الذي يفنى ويتلاشى بمعنى معين ، ولكنه يحيا ويستمر بمعنى اخر اهم داخل الجسم الحي . اما في الثانية ، حين يحدث انقطاع في التراث ، وحين تتم محاولة الاحياء دون ادراك لمقتضيات العصر الجديد الذي طرأ بعد الانقطاع الطويل ، فان في هذا الاحياء ذاته موتا للتراث ، لانه يبعثه من جديد في غير وقته ، ويزرعه ـ كالقلب الغريب ـ في جسم عصر لا بد ان يرفضه .

ومعنى ذلك ان الاحياء الحقيقي للتراث انما يكون عن طريق تجاوزه واتخاذه سلما لمزيد من الصعود . اما احياء الاسترجاع فهو في حقيقته قضاء على التراث ، الذي لا يريد منا ان نستثمره وننفقه، حتى يعود علينا انفاقه بالخير . وحين يدوم اختزان هذه الثروة اطول مما ينبغي فلا بد ان تصبح العملة التي تتألف منها هذه الثروة غير متداولة ،وغير قابلة لان ينتفع منها احد .

درس النهضة الاوروبية :

ولو فكرنا مليا في علاقتنا الراهنة بالتراث العلمي والفكري العربي لتبين لنا ان موقفنا منه موقف الاختزان ، لا الانتفاع

والاستثمار . اما الذين انتفعوا حقا من هذا التراث فهم الاوربيون ، الذين افادوا من جهود العرب في الميادين الفلسفية والفكرية والعلمية خلال الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى ، وامتصها جسم المعرفة عندهم فنما بفضلها نموا هائلا في عصرالنهضة، واستمر النمو منذ ذلك الحين بلا انقطاع . صحيح أن من الصعب ان نتعرف ، في الحضارة الاوربية الحالية ، على تراثنا هذا تعرفا مباشرا ، ولكن هذا شان الحياة الحقيقية للتراث ، فمع انك لا تستطيع في اغلب الاحيان ان تتعرف في وجهك الحالي على صورة جدك العاشر (ان كنت تحتفظ بصورة كهذه) فان هذا لا يمنعك من ان تؤكد انه هو الاصل القديم لوجودك . لذلك فان المقدمات التي بنيت عليها هذا البحث تؤدي الى نتيجة لا مفر منها ، هي ان الحضارة الاوربية هي التي حفظت التراث العربي وصانته بالطريقة الصحيحة ، اعني انها صانته عن طريق تجاوزه وتصحيحه ونفيده، وضمنت له من خلال موته حياة مستمرة .

ولنقارن بين ما حدث للتراث المستمر ، وما حدث للتراث المنقطع في اوربا . ففي عصر النهضة كان امام الاوربيين تياران يمكن نظريا الاستعانة بهما في احياء العلم : احدهما هو التيار اليوناني ، والاخر هو العربي . وعلى قدر ما انتفع الاوربيون بالتيار الاخير (وهو انتفاع يتسع نطاق الاعتراف به حتى بين اشد المؤرخين الاوربيين اغرافا في تمجيد حضارتهم الخاصة) ، فقد رفضوا التيار الاول . وحين اقول انهم رفضوه فانا لا اعني انهم ظلوا يرفضونه دائما ، او انهم رفضوه في جميع المجالات . فمن المؤكد انهم عادوا الى التراث اليوناني والروماني في مجال الفنون والاداب ،ولكنهم في مجال التفكير العلمي والفلسفي رفضوه رفضا قاطعا . فقد كان اول ما حرص عليه كبار فلاسفة الفترة الاولى من العصر الحديث (حين كان الفلاسفة علماء او موجهين لتيار المعرفة بوجه عام) هو توجيه اقسى الانتقادات الى العلم اليوناني ، والى سلطة ارسطو على وجه التخصيص . ولست بحاجة الى ان اشير الى تلك النصوص المشهورة التي دعا فيها بيكن وديكارت الى الخلاص من سلطة القدماء ، واتخاذ الفكر الواضح ، او المشاهدة والتجربة الواضحة معيارا اوحد لقبول الفكرة والاعتراف بصحتها .

ان من واجبنا في العالم العربي ان ندرس هذا الموقف بامعان، لكي نعرف كيف انتقلت اوربا من مرحلة تخلف طويلة الى اول الطريق الذي اوصلها الى ما هي فيه الان من تقدم ، ولكي تتضح امام اعيننا العوامل التي جعلت الغربيين يتقدمون علينا الى حد هائل ، مع ان نقطة بدايتهم في ذلك العصر ـ كانت اضعف بكثير مما كنا قد وصلنا اليه قبلهم بقرون عدة .

واول ما نستخلصه من هذه الدراسة هو ان الاوربيين لم يخجلوا من اعلان رفضهم القاطع لتراث كامل ينتمي الى صميم ثقافتهم ، وتمتد اليه جذورها . فقد كان الفلاسفة في هذه الفترة يقفون من تراث الفكر الارسطي الذي سيطر على العصور الوسطى سيطرة كاملة، موقف التحدي الصحيح ، الذي وصل الى حد الغبن والتجني . ذلك لانهم حملوا ارسطو جميع اوزار التأويلات والتشويهات الفاسدة التي صبغت بها آراؤه في العصور الوسطى ، وهاجموا فكره وعلمه على اساس ما لحق به بعد ذلك من تطورات لم يكن ارسطو ذاته مسؤولا عنها ، ولم يكن ليقبلها على الاطلاق لو قدر له ان يعرف شيئا عنها . وكانت نقطة بداية العلماء ـ من امثال جاليليو ـ هي ضرورة تحرير الفكر من سلطة القدماء ، والتوجه الى الطبيعة مباشرة ، بدلا من كتب التراث ، من اجل فهم العالم وقوانينه . ولم يكن في موقف الرفض القاطع هذا ما يعيبهم ، بل لقد اصبح هذا الموقف هو اساس مجدهم وهو الذي وضعهم على قمة الفكر والعلم في عصرهم .

ولو بحثنا عن العامل الذي جعل الفكر والعلم الاوربي يرفض تراثه القديم على هذا النحو القاطع ، الذي وصل ـ كما قلنا ـ الى حد القسوة لوجدنا ان هذا العامل كان في حقيقته انقطاع التراث فالفكر والعلم القديم كان في عصره شيئا هائلا بحق ، وكان مصدر امجاد للامة التي ظهر فيها ما زال العالم يعترف لها بها حتى اليوم . ولكن تجمد هذا التراث في العصور الوسطى الاوربية ، ووقوفه عند حدوده القديمة ، او حتى تراجعه عنها ،وعدم قدرته على تطوير ذاته في حركة متصلة يعمل فيها القديم على استيعاب الحديث ، في داخله مع تجاوزه على الدوام ـ كل ذلك كان من المحتم ان يؤدي باقطاب الفكر والعلم في عصر النهضة واوائل العصر الحديث الى ان يشنوا حملة ضارية ضد التراث ، ويتصوروا ان التقدم الحقيقي لن يتحقق الا عن طريق رفع شعار « البدء من جديد » في جميع المجالات ، ولم يمنع ذلك ، بطبيعة الحال ، من ان يتخذ الاوربيون فيما بعد موقفا متوازنا من التراث القديم حين وضعوه في اطاره التاريخي ، ولم يعودوا ينظرون اليه على انه قوة تنافس الحاضر ، فعندئذ ، حين بدأ الحاضر الاوروبي يمتلىء بمضمون غني ، لم يعد هناك ما يخجل في الاعتراف بقيمة التراث الكلاسيكي وفي تمجيده ، بوصفه قوة كانت لها فيمنها الكبرى في عصرها ، وان تكن التطورات التالية قد تجاوزتها الى حد لا متناه. ولنقل بعبارة اخرى ان النظرة التاريخية الى التراث تؤدي الى ازالة كل تناقض بين تمجيد التراث والاعتراف بتخلفه . فهو يمجد لانه كان شيئا رفيعا في عصره على حين ان تخلفه يظهر واضحا اذا ما قورن بالاوضاع التي تجاوزته في العصر الحاضر .

وهكذا نستخلص من استيعاب درس النهضة الاوروبية وموقفها من التراث حقيقتين على اعظم جانب من الاهمية .

الاولى هي ان من الممكن ان تقوم نهضة علمية وفكرية رفيعة المستوى في مراحلها الاولى ، على اساس الرفض الحاسم للتراث، وذلك حين يكون هناك انقطاع في التراث يمنع من استمراره في خط متصل حتى الحاضر . وعندئذ لا بد ان ترفع النهضة شعار « البدء من جديد » كعلامة على تحدي التراث .

والثانية هي ان التطور والتقدم المستمر في المعرفة يساعد على الوصول الى نظرة تاريخية الى التراث ، يختفي فيها التناقض بين تمجيده والاعتراف بتخلفه .

الصلة بين التخلف والاغتراب :

ان المقارنة بين موقف الاوربيين من تراثهم ، بل من تراثنا نحن ايضا ، وموقف الثقافة العربية من هذا التراث ، تكشف لنا عن مصدر اساسي من مصادر تخلفنا الفكري . وهذا التخلف يتخذ في العصر الحاضر ، شكل الاغتراب والتمزق ، الذي لا يمهد لانطلاقة جديدة الى الامام ، بل يعبر عن حالة من العجز عن مواجهة العصر والعجز عن نسيانه في الآن نفسه . فالعقل العربي ، في المرحلة الراهنة من تاريخه ، مغترب بصورة مزدوجة ، وهو لا يتلقى هذا الاغتراب من الخارج ، او من قوة تفرضه عليه ، بل انه هو الذي يفرضه على ذاته باصرار وعناد ، فتكون النتيجة الوحيدة لذلك هي بقاؤه حيث هو، على حين ان العالم من حوله يجري بسرعة مذهلة لكي يحتل في كل يوم مواقع جديدة ، يغزوها العقل السليم .

ولقد الفنا ان يحدثنا الكتاب في بلادنا عن ذلك الاغتراب « المكاني » الذي يتمثل لدى المتعلقين بثقافة بلاد غير بلادهم وهم اولئك الذين تجدهم حولك اينما ذهبت : يكملون ما يعجزون عن التعبير عنه بكلمات اجنبية ، ويقتبسون من بلاد بعيدة اسلوب حياتهم اليومية ، وشكل ملبسهم وربما طريقة ايماءاتهم واشاراتهم .

هؤلاء الناس مغربون مكانيا لان جسمهم في اوطانهم وعقلهم في اوطان اخرى نائية . وربما كان كل مثقف متعلق بالفكر الغربي ـ بمعنى ما ـ من هؤلاء المغتربين « مكانيا » ، ومن ثم فهو هدف للحملات التي يشيع توجيهها ضد « الغزو الحضاري » والثقافات المستوردة التي تهدد اصالتنا بافدح الخطر .

غير ان اصحاب هذه الحملات هم انفسهم مغتربون بمعنى اخطر، لانه اشد خفاء . ذلك لان النصير المتحمس للتراث يغترب عن عصره، وعن حاضره وينعلق بعصر تفصله عنه ابعاد زمانية كبيرة . ومثل هذا الاغتراب الزماني امر لا مفر منه بالنسبة الى كل من يلتمس في التراث اجابات كاملة عن الاسئلة التي يثيرها العصر الحاضر :فهو مفروض على ذلك الذي يبحث في التراث اللغوي عن كل افاق العصر المستحدثة ، ويعتقد ان عجزنا اللغوي انما يرجع الى عدم قدرتنا على التنقيب عن كنز الالفاظ والتعبيرات التي كانت تعبر عن كل ما نريده من معان في التراث اللغوي ، وهو مفروض على من يلتمس في حكمة الاقدمين حلا لكل مشكلات العصر الاخلاقية ، وعلى من يجد في سلوك القدماء في المعارك مرشدا او موجها في الحرب الحديثة، الى اخر هذه الامثلة التي يحفل بها عالم الفكر في بلادنا العربية. مثل هذه الانماط الفكرية ـ وهي كثيرة ـ لا بد ان تكون مغتربة ، حتى لو تنكرت للعصر الذي تعيش فيه ، وسعت الى قطع روابطها به، وظل فكرها وقلبها مرتبطا بالعصر القديم الذي تتركز فيه كل امالها . ذلك لان الحاضر يفرض نفسه على المرء مهما حاول ان يهرب منه : انه حولك اينما ذهبت ، ومهما دفنت رأسك في رمال الصحراء ، او في رمال البيداء . ولا بد ان يظهر الاغتراب في حياة هؤلاء المتنكرين للعصر على شكل عجز عن فهم ما يدور فيه او عدم قدرة على السلوك السوي ، او تمسك بعادات لا تلقى من الاخرين الا السخرية ، او ـ على احسن الفروض ـ احساس طاغ بان كل شيء في العصر الحاضر خطأ ، وبان الايام الطيبة قد ولت الى غير رجعة ، وبان المرء قد كتب عليه ان يعيش في عصر وينعلق بعصر اخر. وهذا من اجلى صورها .

ان المأساة التي تنطوي عليها هذه الازمة هي ان اصحاب هذا الاتجاه يبحثون عن الانتماء ، ويفتشون عن جذورهم العميقة ، ولكنهم يزدادون اغترابا كلما توهموا انهم دعوا روابطهم بهذه الجذور. لان ذلك الاغتراب الزمني قد يكون اخطر من الاغتراب المكاني. فصحيح ان من يرتبط الى حد مفرط بثقافة معاصرة تنتمي الى مجتمع غريب عن مجتمعه هو ـ الى هذا الحد ـ شخص مغترب،ولكن الايؤدي بعد الشقة في الزمان الى اغتراب اخطر ؟ الا يمكن ان تكون ثقافة المجتمع الذي ننتمي اليه غريبة عنا اذا كان يفصلها عنا بعد زمني وحضاري هائل ؟ وهل نستطيع ان نقول بصدق اننا منتمون حين نتعلق بثقافة هي حقا منتمية الى مجتمعنا ، ولكنها ظهرت في عصر تختلف جميع مقوماته عن عصرنا الى حد اننا لا نستطيع ان نتعرف على اي منها في حياتنا الراهنة ؟ الا تزداد وطأة هذا النوع من الاغتراب في عصرنا الحاضر بالذات ، حيث اصبح الجيل الجديد منفصلا عن الجيل السابق عليه مباشرة « بفجوة » اصبحت موضوعا للدراسات ومثيرة للازمات ؟

ان المكان في عصرنا ينكمش . والعالم يتجه الى التقارب الفكري وتكوين ثقافة ذات طابع عالمي تقوم فيها التكنولوجيا الحديثة بمهمة تخفيف الحواجز بين الثقافات المحلية . وفي مقابل ذلك تحدث في الزمان حالة عكسية : فهو يزداد امتدادا الى حد ان الفارق بين جيلين متعاقبين قد يزيد الان عن الفارق بين عشرة اجيال في القرون الماضية . وفي مثل هذا العصر الذي تزداد فيه المسافات الزمانية اتساعا وتزداد فيه المسافات المكانية ضيقا ،قد تكون العودة الى ثقافة سحيقة القدم مؤدية الى اغتراب اشد من ذلك الذي يؤدي اليه التعلق بثقافة بعيدة مكانيا .وبطبيعة الحال فان المغتربين زمانيا ينكرون ذلك عن طريق نظرة معينة الى الزمان، يؤكدون فيها ان التغير وهم ، وان الزمن لم يتقدم ، وان التطور خداع ، اي انهم يعزون بنظرة سكونية الى الزمان . ولكن التسارع المتزايد للتغير يثبت انهم ، في هذا ايضا ، انما يخدعون انفسهم.

خاتمة :

تبدو النغمة التي نختم بها هذا البحث نغمة حزينة ، اذ يتضح منها ان من ينكر التراث مغترب ، ومن يتمسك به مغترب ، ويبدو ـ تبعا لذلك ـ ان القصور والعجز الفكري امر مكتوب على الجميع.

على ان هدفنا ـ كما قلنا في مستهل هذا البحث ـ ليس حل اشكال التخلف الفكري بقدر ما هو القاء ضوء جديد على بعض المفاهيم الاساسية التي يشيع استخدامها عند معالجة موضوع التخلف. ومن المؤكد ان تصحيح هذه المفاهيم ، او على الاقل كشف اوجه القصور والخطأ في استخداماتها الجارية هو امر له فائدته ايجابية ، لانه يمثل الخطوة الاولى في الطرق السليم ـ ونحن لا نطمع في ان نحقق اكثر من هذه الخطوة الاولى ، اما بقية الخطوات فانها رسالة جيل كامل، ومجتمع باسره ، اذا توافر شرطا الاقتناع والارادة .

وتحقيقا لهذا الهدف ، نود ان نختم هذا البحث بعرض لاهم المفاهيم والافكار التي يمكن ان يؤدي هذا البحث الى تغييرها ، وهو عرض لا يقتصر على تلخيص ما جاء من قبل في البحث ، بل انه يستخلص بعض النتائج التي تؤدي اليها المقدمات المعروضة في البحث ، والتي لا تظهر في هذه المقدمات الا بصورة ضمنية .

اولا : ان معنى التراث ذاته في ثقافتنا المعاصرة يحتاج الى مراجعة اساسية ، ذلك لان التراث الحقيقي هو الذي يندمج في التاريخ اللاحق ويصبح جزءا لا يتجزأ منه ، اما التراث المنقطع،وغير المندمج، فربما لم يكن يستحق هذا الاسم . وما دامت كثير من مبادىء هذا التراث ومقوماته لم تصبح (لاسباب متعددة) جزءا من تكوين العقل العربي (بالمعنى الذي اصبحت فيه مبادىء بيكن وهيوم جزءا من العقلية الانجليزية ، او مبادىء ديكارت جزءا من العقلية الفرنسية) فان شرطا اساسيا من شروط « التراث » لا يتوافر فيها .

ثانيا : يترتب على ذلك ان فكرة « احياء » التراث لها عندنا موقع فريد ومعنى غير مالوف . ذلك لان التراث، بالمعنى الحقيقي، اعني التراث « المندمج » لا يحتاج الى احياء ، لانه حي بطبيعته ،حي في تجاوز التطورات التالية له وتصحيحها اياه ، بل في تفنيدها له. اما الاحياء الذي ندعو اليه فهو بعث للماضي بطريقة لا تاريخية واعادة كشف له بعد طول انقطاع في عصر مختلف ، مع توقع قيامه بوظيفة لا يستطيع التراث الحقيقي ان يقوم بها على الاطلاق . وهي حل مشكلات الحاضر .

ثالثا : واذن فالمشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا الى التراث عاملا رئيسيا في تخلفنا الفكري ، ليست كون هذا التراث مليئا بالعناصر الغريبة او الخرافية او اللاعقلية (مع اعترافنا بالخطورة الشديدة لهذه العناصر) ،بل في كون هذا التراث منافسا للحاضر بطريقة « لا تاريخية » والوضع الصحيح هو الا تكون هناك اية منافسة بين الماضي والحاضر ، لان الحاضر يضم الماضي في داخله

ويتفوق عليه بنفس المعنى الذي تتفوق به الاجيال الجديدة على الاجيال القديمة دون منافسة بينها . فالمفاضلة بين الماضي والحاضر امر لا معنى له ، اذا كانت النظرة الى التراث الفكري سليمة وصحيحة ، على حين ان هذه المفاضلة تشغل قدرا هائلا من خلافاتنا الفكرية وصراعاتنا الايديولوجية .

رابعا : ومعنى ذلك ان التشخيص الذي نقدمه لظاهرة التخلف الفكري يتخلص من التضاد بين انصار التراث وخصومه ، ويتجنب اخطاء الفريقين المستمرة ، من لوم للتراث بلا تحفظ ، او امتداح له الى حد اطالة فعاليته حتى العصر الحاضر ، لان هذا التشخيص يضع التراث في اطاره التاريخي ، ويؤكد الفارق النوعي بينه وبين الحاضر اي استحالة المقارنة بينهما .وهكذا يتيح لنا هذا التحديد للمفاهيم ان نتجنب الوقوع في شراك المعركة التي لا تنتهي بين انصار الماضي وخصومه ، والتي يرى فيها كل فريق ما يريد ان يراه في التراث في ضوء فهمه للحاضر ولطريقة السلوك فيه .

خامسا : من هذه النقطة الاخيرة يتبين لنا ان الصراعات الحقيقية حول التراث هي في الواقع صراعات حول الحاضر ، فاذا كنت ترى في التراث ما يؤيد الفكر الاشتراكي مثلا ، او كنت ترى فيه ما يؤيد الحكم الثيوقراطي المبني على سلطة الدين وحدها ،فان الخلاف بين هذا وذاك لا يرجع الى موقفين متعلقين بطريقة فهم التراث ، بقدر ما يرجع الى موقفين متعلقين بالحاضر ، يتم اسقاطهما على التراث .

سادسا : ومعنى ذلك ان مشكلة التراث ترتد في حقيقتها ، الى ما فعلناه نحن به ، وطريقة تناول العصور التالية له ،وموقفها منه ، فاذا كانت تختزنه بطريقة سلبية دون انتفاع ودون تداول ، فانها تعبر بذلك عن عجزها هي ، لا عن عجز التراث في ذاته ولذلك فان تخلف التراث هو تخلفنا نحن ، وعيوبه هي عيوبنا .

سابعا : ان اصلاح حاضرنا من خلال منطق العصر هو الاحياء الحقيقي للعناصر المجيدة والزاهية في تراثنا ، حتى لو لم يكن من الممكن التعرف على هذه العناصر في ثقافتنا الحالية . ولا بد ان يؤدي امتلاء الحاضر بالمعنى وبالمضمون والهدف الى نظرة اكثر ثقة، واكثر موضوعية الى التراث . اما فراغ الحاضر وعجزه فهو الذي يؤدي الى تشويه فكرتنا عن الماضي ، اما بالمدح الزائد واما بالذم المفرط .

وبعد ، فان الكثيرين يدعون الى عصر نهضة ، مواز لعصر النهضة العربية ، حين يحدث في الثلث الاخير من القرن العشرين، لا كثيرا من الصراعات التي كانت تدور في عصر النهضة الاوروبية بين عقلية العصور الوسطى والعقلية البادئة في التحرر ، تدور في حياتنا المعاصرة ، كما يظهر فيها ذلك التعايش غير المستقر ، وغير المريح ، بين هاتين العقليتين . وكل ما اود ان اقوله هو ان عصر النهضة العربية ، حين يحدث في الثلث الاخير منالقرن العشرين ، لا بد ان يكون مختلفا بصورة جذرية عن نهضة تحدث في القرن السادس عشر . كما ان سلوك اولئك الذين يجدون امامهم امثلة سابقة شقت الطريق امام العالم ، ينبغي ان يكون مختلفا عن سلوك اولئك الذين كانوا روادا اوائل لهذا الطريق ، والذين تحملوا وحدهم عبء التجربة الاولى وعانوا مشاكلها . ومع كل ذلك فقد كانت نظرتهم الى تراثهم ، في عصر نهضتهم ، نظرة ناضجة، لا تخجل من الاعتراف بالاختلاف الجذري بينه وبين حاضرهم الجديد ، وكانت بذلك عاملا حاسما في القضاء السريع على تخلفهم الفكري. فهل نقبل نحن ان تكون نظرتنا الى التراث ، في عصر نهضتنا الحالي ، اقل نضوجا ، واشد تخلفا ؟

العراء

مجموعة قصص بقلم

الدكتور سهيل ادريس

دار الآداب

صدر حديثا